ليلها وأخرج ضحاها » فظهر أنه لاتناقض ولا تنافي ولاتخالف بين آيات ( فصلت ) وآية النازعات. وثم وجوه أخرى ذكرها المفسرون تنطبق على اللغة وانما ذكرنا ماهو الراجح عندنا بحسب ماوصل اليه علمنا وفوق كل ذي علم عليم

القسم العمومي

## نظام الحب والبغض - تابع ويتبع

### ماهو الخير والشر ؟

هاتان الكلمتان (الخير والشر) ومارادفهما يرد ذكرهما كثيراً في العلم الباحث عن أحوال النفس ومعاملاتها بل عليهما مدار هذا العلم في أوامره ونواهيه لأن الانسان في حبه طالب خير وفي بغضه هارب من شر . وهذا هو ديدن الانسان مدة حياته . وكل واحد يعتقد في الجهة التي يطلبها الخير لنفسه وفي الجهة التي يهرب منها الشر (اللهم الا مبغضي ذواتهم) وكل واحد ينبسط للخير وينقبض من الشر . ولكن هل كل واحد يعرف ماهو الخير وما هو الشر وهل كل من اعتقد في جهة من الجهات الخير أو الشر مصيب ؟ لو كان كل واحد عارفاً بهما لكان كل واحد مصيباً في طلبه وهربه ولو كان كل واحد مصيباً لتضاءل الشر وتبارك الخير .

هذه القضايا مسلمة وبناء عليها نسأل ونقال لنا : من ذا الذي يتولى للناس تعريف هاتين الكلمتين ؟ فنقول هم الباحثون في أحوال النفس . فنسأل مرة أخرى ويقال لنا : من هم أولئك الباحثون ؟ هل هم الا أناس أمثالنا ؟ وفي هذا السؤال رائحة الإباء والاستنكاف فيجب ان يكون في الجواب رائحة الرفق والأناة فنقول : الباحثون في علم النفس أناس أمثال غيرهم من حيث الصور الجسدية وكذلك الباحثون في كل علم . ولكن لكل امرئ في هذه الحياة عمل تتفق له فيه اجادة لاتتفق لغيره سيما ان كان ذلك الغير ليس من أرباب ذلك العمل . مثاله الشاعر هو رجل وأنت يا أيها الفلاح رجل فهل أنت عاجز عما يعلمه ويعمله هو ؟ أليس لانك لم تعان الشعر ؟ (بلى) واني أبشرك بأنه هو عاجز أيضاً عما تعلمه وتعمله أنت لانه لم يعان ماعانيته . كذلكم قولوا في الصائغ هو عاجز عما يعلمه ويعمله الخياط والثاني عاجز عما يعلمه الاول .

وكذلكم قولوا في أرباب العلوم والصنائع كلها . ويومئذ لا يصعب عليكم ان تقولوا ان الذي يمانيه علماء النفس من التفكر والتذكر واختبار الاحوال وتجربة الأمور ربما لا يتفق لغيرهم ان يمانوه . فاذا كانوا أمثالهم من جهة صورة الجسد لا يلزم ان يكونوا أمثالهم من جهة صورة الفكر . ولعمركم ان ابن خلدون والغزالي لا يحصى مشابهوهما في الخلقة ولكن مشابهوهما ومقاربوهما في صنعتيهما يعدون على الأصابع وربما لا يبلغون عدد أصابع الكفين .

فاذا علم السائل هذا وسهل عليه ان يعرّف له علماء النفس ( في انفرادها واجتماعها ) الخير والشر فليصغ الى ما اقتبسناه منهم بفكر خالص من الوهم والتقليد وليتأمله بعقله المستفاد لا بعقله المستعار .

« الخير هو استعمال الانسان ما خلق الله له من القوى والاستعدادات فيما خلقت لأجله استعمالا مشروعاً ( أي تابعا لشرع ) يراعى فيه حق الغير » والشر ضده أي عدم الاستعمال مطلقا أو الاستعمال في غير ما خلقت لأجلها أو الاستعمال الذي ليس بتابع لشرع .

هذا التعريف وافٍ جامع لكن التعاريف في الحقيقة لا يستغنى بها الناس عن الشروح والايضاحات والأمثلة (اللهم الا أذكى الاذكياء) فكأنها انما تسطر لتكون قاعدة وأصلا للشروح ولتحفظ عبارتها الجامعة بعد ان يحيط الناس خبراً بالمسئلة من الايضاحات والأمثلة .

ان الله جل ثناؤه قد خلق في الانسان قوى واستعدادات بعضها نصيبها مباشرة المحسوسات وبعضها نصيبها ملاحظة المعقولات فكل ما يستعمل فيه الانسان قواه وينالها يلتذ به وكل ما يلتذ به الانسان خير الا لذة تؤدي الى ألم أو لذة يغصب فيها حق الغير . وكل ما يمنع الانسان عن استعمال القوى فهو شر .

(مثال أول) أنت اذا أكلت فمعناه (١) انك تمكنت من ان تأكل وهو دليل عدم مرضك وعدم حرمانك من حصول الطعم . و (٢) انك استعملت القوة المخلوقة لك لأجل الأكل لحكمة حياتك وهو دليل محبتك لذاتك لأنك لولم تستعملها لم تحي . ودليل انك وافقت الفطرة التي فطرك الله عليها . و (٣) انك تلذذت في أكلك وهو دليل سلامة حواسك . وكل هذه الاشياء لا شك في كونها خيراً . أما اذا أكلت فوق

الشبع فانك سوف تألم إما عاجلا وإما آجلا . وقد عطلت في هذا الأكل القوة التي تستطيع بها ان تأكل . وتألمت لذلك فيما بعد . وخالفت الأدب . وكل هذه شر . وكذلك اذا تعديت في أكلك على حق الغير كأن غصبت الذي أكلته من غيرك فإن هذا يؤدي الى ان يشاجرك عليه وقد يقوى عليك بقوته أو القوة المؤلفة لحفظ الحقوق (قوة الحكومات) واذا قوى عليك فقد يغصب منك ما تحتاج اليه وقد يعمل فيك أعمالا تمنعك عن الالتذاذ بالأكل . وكذلك اذا استعملت القوة في غير ما خلقت لاجله كما اذا أكلت سما أو ترابا . أو لم تستعملها البتة كبعض الذين يعملون ذلك ويجوعون أياماً كثيرة عمداً . فكل هذه المذكورات شر .

(مثال ثان) وأنت اذا واقعت فمناه (١) انك تمكنت من الوقاع ولم يمنعك مانع . و (٢) انك استعملت القوة المخلوقة فيك لاجل الوقاع لحكمة بقاء النوع . و (٣) انك وافقت الفطرة . و (٤) انك أحببت غيرك و (٥) انك تلذذت . وكل هذه المذكورات دليل سلامة حواسك وسلامة فطرتك وسلامة عقلك ودليل أمنك من الموانع الغيرية كالموانع الذاتية . وكلها خير اذا كان وقاعك تابعاً لنظام . أما اذا أفرطت في الوقاع افراطاً يعطل القوة أو استعملت القوة في غير ما خلقت لاجله كأن واقعت بهيمة أو ديرا أو أهملت الوقاع المشروع من غير مانع . فإن هذه الاشياء عين الشر .

(مثال ثالث) وأنت اذا اكتسيت فمناه (١) انك حصلت ما تتقي به الحر والبرد و (٢) انه أحبك الغير اذ عمل لك ما تلبس وأحببت الغير اذ سترت عن عينه ما ربما يكرهان يراه و (٣) انك أحببت ذاتك اذ وقيتها أو زينتها . وكل هذه خير . أما اذا لبست مالا عدل فيه كلبس ما لا يلائم عملك كديباج وأنت تعمل في الطين أو قطب غليظ وأنت حاكم أو بزاز وكلبس شيء يليق بالاناث دون الرجال وكالتزين بشيء يحتاجه الناس للمبادلة أشد الاحتياج . أو أبغضت ذاتك فلم تلبس او لبست ما لا يلائم عملك أو لبست مالا يلائم الزمان كلبس أخف الثياب في أشد الايام برداً وبالعكس . فكل هذه وما أشبهها من الاشياء التي لا عدل فيها شر .

(مثال رابع) وأنت اذا أويت الى بيت وبت في أمان فمناه (١) انك نلت حاجة لا يملو فيها عليك الملوك الا بالزخرف . و (٢) انك نلت من فوائد اشتراكك مع الهيئة

المجتمعة لأنك ما وجدت هذا الميت الا بفضل اجتماعهم ولا وجدت هذا الأمان الا بفضل التكافل المشروط طبعاً ووضعاً وشرعاً ولولا ما ذكرنا لما كان ميتك أفضل من جحر الوحش ولا كنت بآمن من حمام بين صقور، ولا آنس من حي بين موتى القبور، فقدر هذا الخير بنظرك لتعلم فضل غيرك على ذاتك ولتعلم ان لذاتك فضلا على غيرك به استوجبت فضله عليك. ولتعلم من هذا ان الأمر تكافؤ وتكافل. لا تطول وتفضل. وان الفضل كله لله وحده. وان الخيرات لا تعدو ناطرفة عين ولكننا غافلون نجلب الشر على أنفسنا بأنفسنا حنيناً منا الى جهالات سبقت ونحن لها متوارثون الى ان يأذن الله بقشعها رويداً رويداً.

أما اذا استوحشت نفسك وتشبهت بالوحوش في مساكنها ومعايشها فضاء لك أهملت الاستعداد الذي فيك وخالفت الفطرة وابغضت ذاتك فلا شك بأن هذه الحالة من الشر.

(مثال خامس) وأنت اذا فكرت في خواص المحسوسات وعجائب المعقولات فأنت يومئذ الخير العظيم يوم يتبع تفكرك علماً وعملك عملا وعملك نفعاً عميما وشرفا لنوع عظيما. بربكم قولوا لنا اذا استثنينا من هذا النوع أولي الالباب من الانبياء وذوي الافكار من الحكماء والمخترعين والمعلمين فأية مزية تبقى في الباقين وأي شرف لهم؟ أولئك هم منابع أبواب الخير ومصادر الشرف الاعلى لهذا النوع. أما من أساء استعمال التفكر كأن تفكر بالعدوان وأساليبه فهو الشر بعينه العظيم. ومثله أو قريب منه من أهمل التفكر لأنه يصعب علينا ان نفرق بين عامل بالشر وحامل عليه لانه تفكر وبين واقع في الشر وحمول عليه لانه لم يتفكر. نسأل الله السلامة لأفكارنا من ان نهملها ومن ان نعملها في باطل ومن ان نعميها بالتقليد.

هذا ويرى القارئ اننا تساهلنا أو سهلنا العبارة وتنازلنا بالتمثيل الى أمور ليس ادراكها بالصعب فربما ظن اننا نكتب كتاباً لقراءة المبتدئين. وهذا الظن قد ينشأ من أمرين الاول الاسلوب الذي التزمناه لزيادة التوضيح وعدلنا به عن سرد الكلام والثاني استصغار هذه الامور التي مثلنا بها. ولما كان الواقع يكبر هذه الامور التي سبكنا نضار حقائقها بقالب سهل المأخذ وجب ان نزيدها تبياناً ونزيد الخير والشر تعريفاً:

ان الانسان هذا المخلوق العظيم ، صاحب العقل المنير ، صاحب الرأي والتدبير ، صاحب السلطان على مخلوقات الارض ، والاشراف على مصنوعات السماء ، صاحب التمدين والاجتماع ، صاحب الابداع والاختراع ، صاحب المنطق المفيد ، والعزم الشديد ، صاحب الصورة التامة ، والروح العالية ، صاحب المآثر والآثار ، كاشف الخواصّ والاسرار ، هذا السائد بالفكر الممتاز به لم يخرج في كل مزاياه التي عددناها وغيرها مما يعجز القلم عن تصويرها تصويراً شعرياً خيالياً أو حقيقياً عن كونه حيواناً محتاجاً كالحيوانات الى طعام وشراب ومأوى مسوقاً من طبيعة خلقته الى الوقاع ومعالجة ألم الباه . فهب اننا سميناه قطب هذا الوجود ، وصفوة السر من كل موجود ، وهب اننا رفعناه فوق الشمس مقاماً وضياء . وأحللنا فضائله فوق التصور درجة واستقصاء ، ونوهنا بمنزلته عند خالقه ، وعظمنا الاعتبار للطيبي من خلائقه ، أفنستطيع ان نقول انه مقدّس عن المطعم والمأوى والمنكح ، بعد ما اختبرناه دهوراً دهاريراً ، وبلوناه فذا وفي العير والنفير . هل علمنا منه غير كونه هلوعاً . اذا مسه الخير مما يغذوه ويكسوه كان منوعاً ، واذا مسه الشر من جوع وعرى كان جزوعاً . هل عهدنا به الا التقاتل من طمع أفراده وجبهم الاستئثار ؟

هذا هو الانسان الذي يمرون ماضيه وما أتم عن حاضره بناقدين . هذا هو المخلوق الذي فطره خالقه محتاجاً ويسر له ما يحتاج اليه وخلق فيه سائقاً يسوقه نحوه وجاذباً يجذبه ودافعاً يدفع ما يرى استغناءه عنه . أفتسمي هذا التركيب الذي ركبه الصانع شرّاً . أم عمل المخلوق بحسب التركيب . أم تيسر الحاجة التي لابد منها . أم اللذة الطبيعية في نيل هذه الحاجة ؟ واذا لم تكن هذه شراً فهل بقي الا الخير ؟

سيقول قائلون ان هذا الاحتياج لايدفع الانسان عن نفسه بتحصيل الحاجة الاّ بكد ونصب وقصارى الامر في حصول الحاجة انها تسكن ألماً تقدم الحصول فهب اننا سمينا تلك الامور خيراً أفليس الشر قبلها وبعدها .

هذا كلام له وجه ظاهر ولكن ههنا اعتقادان في حياة الانسان احدهما ان الانسان يستفيد منها والآخر انه لايستفيد فإن كان السائل ممن يعتقدون استفادة الانسان من الحياة فجوابنا له ان الالم السابق الذي يسكنه نيل الحاجة وتعقبه بهذا النيل اللذة ليس

شراً بل هو لتعرف به اللذة ويشعر بها ولو كانت دائمة لما أحسّ بها المرء وهذا كسبق العدم على الوجود والجهل على العلم والضعف في الطفولية على القوة في الرجولية ونظائر ماذكرنا . على انه اذا سمينا تلك الآلام وما يتبعها من لزوم الكد والنصب والمجاهدة شروراً فلا ضير فيها اذا كانت الخيرات تدفعها وتربوها ويدلنا على ذلك استعذاب الحياة مع كل المرارات التي تصادف في سبيلها وماذلك الا لان الخيرات لايطول احتجابها كالشمس اذا حجبها الدجى واستأنف النهار يشرق بضيائها . وان كان السائل ممن لايقولون باستفادة الانسان من الحياة فجوابنا له : اذا كانت الحياة من أصلها حملا ثقيلا والاحوال فيها متضادة ومتعاقبة يعقب الضدّ فيها الضد فهما صادفنا الضد الذي نرتاح به زمناً من الازمان كان جديراً بنا ان نفضله على ضده الذي يتعبنا . وهذا هو معنى الخير والشر اللذان هما ضدّان . على انك يامنكر الاستفادة من الحياة يشم منك رائحة اتباع الخيالات الفاسدة ويتفرس فيك انك مبغض أو ستبغض ذاتك ، ويتوقع بك كل شر فدعني منك .

ان هذا الانسان البديع خلقه لم يخلقه الخالق عبثاً وانه خلق لامر عظيم . وانه سائر الى كمال بديع . وانه شاء أو أبى يحيا في هذه الدار محباً للحياة ، ويكدّ فيها غير مالّ من الكدّ . وان الصانع خلق له مافي الارض جميعاً . وقسم بين أفراد الاعمال . وخصّ كل عامل بما يناسب عمله من طعام ولباس ومبيت . وأعان كل عامل على عمله . وعلمه مالم يعلم . وتحفه بهذا الفكر العجيب . الذي به امتيازه العالي . فانقسم الانسان بحسب جسده وفكره بين جهتين تتعاور عليه فيهما الخيرات والشرور التي جعلها الصانع ممتزجة بعضها . وجعل للجسد من الخيرات لذات المطاعم والمشارب والمناكح والمساكن . وللفكر من الخيرات لذات الادراك للامور البعيدة والاختراعات العجيبة . والتأثيرات المعنوية الغريبة . وجعل الخيرات متيسرة ، ولكن تجاوز الحدود هو الذي يوفر الشرور . وتجاوز الحدود أكثر ماينشأ من قلة التفكر وعدم العلم بنظام الحب والبغض أي بأحوال النفوس في انفرادها واجتماعها . ومن أحب ذاته حق المحبة هيهات ان يظلمها . ومن أراد ان لايظلم نفسه فليحارب من لايظلمون غيرهم وليحارب من يظلمون . فلا جناح علينا ان نبيع الحياة وهي أغلى شيء في جهاد الذين يظلمون غيرهم لعلنا نحيا لا نظلم ولا نظلم . أو يحيا أبناؤنا من بعدنا على هذه الشاكلة . لعلنا نحيا عالمين أن ذوات غيرنا كذواتنا فنأخذ مالناونذع لهم مالهم . لعلنا نحيا متعاونين فنحن كلنا

أخوة. سواء بالحياة والممات. سواء بالحاجة للاكل والشرب والنكاح. سواء بالتكلم والتفكر اللذين يميزاننا عن العجماوات. سواء بالفرح والالم اذا فزنا أو خبنا. سواء بالخوف والرجاء في يومنا وغدنا.

ونحن سواء بالتفكر والعنا ... بتحصيل ما نحتاج في كل معمل
ترى أعجزنا ان نسالم بعضنا ... لنسلم من عدواننا والتقلقل
نرى أعجزنا ان نعاف رذائلا ... ونهجر أوهاماً رمتنا باحبل

اللهم الهمنا رشدنا وأعنا في استثمار الخيرات الموهوبة لافكارنا إنك مفيض الخير، وأنت المستغني وحدك عن الغير.

ـ ثمة بقية ـ (ع ز)

## نموذج من دلائل الاعجاز (*)

تمتاز كتب الامام عبد القاهر الجرجاني واضع فنون البلاغة (رحمه الله تعالى) على سائر الكتب التي ألفت من بعده بعدة مزايا منها أن عبارتها بليغة. وأساليبها رشيقة، ومنها تصوير المعاني شخوصا تامة سوية. حتى كأن المقولات ملموسة مرئية، ومنها كثرة إيراد الشواهد والامثلة على الوجه الذي اختاره الاوربيون ومقلدوهم في كتب التعليم لهذا العهد. واننا نورد هنا نموذجا من كتاب دلائل الاعجاز في علم المعاني وذلك من حيث انتهينا في الطبع بمطبعتنا (الكراسة أول الملزمة ٤٤). بين رحمه الله في فصول متعددة فساد رأي الذين ذهبوا الى أن الفصاحة والبلاغة صفة للفظ دون النظم والاسلوب باعتبار تصوير المعنى ثم ختم ذلك بفصل في الموازنة بين المذهبين فقال:

### فصل

قد بلغنا في مداواة الناس من دائهم وعلاج الفساد الذي عرض في في آرائهم كل مبلغ، وانتهينا الى كل غاية. وأخذنا بهم عن المجاهل التي

(*) ان هذا النموذج نموذج للطبع أيضاً فالكتاب يطبع بهذه الحروف